**المحاضرة رقم 04: فروع علم البلاغة البيان / البديع / المعاني**

**علم المعاني :**

أحد أهم فروع البلاغة الثلاثة بالإضافة إلى البيان والبديع ، ويعود الفضل في تقرير مسائله وشرح تفاصيله وتوسيع مباحثه إلى العالم الفذ عبد القاهر الجرجاني الذي استوعب هذا العلم من أطرافه فلم يدع للاحقين فيه ما يضيفوه إليه أو ما يستدركوه عليه ، لذلك كثرت شروح واختصارات وحواشي كتابي الدلائل والأسرار إلى الدرجة التي أسلمت البلاغة نفسها للجمود والتكرار[[1]](#footnote-2) ، ولكنها لا تخفي الجهد المبذول في محولة تأصيل علم البلاغة وتتبع مباحثها.

وغالبا ما يعرف الشراح والدارسين علم المعاني بأنه :"علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق بها مقتضى الحال ، فتختلف صور الكلام لاختلاف الحال ، من الخبر والإنشاء ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة.."[[2]](#footnote-3) ، وربما هذا لتعريف يرمي إلى حصر أبواب هذا العلم على أساس من مقتضى الأحوال والمقامات التي تعرض للمتخاطبين ، وربما نجد تعريف السكاكي أكثر إلماما بخواص هذا اعلم إذ يقول:"إنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها على الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكه ."

وفي هذا التعريف يبدوا الحس التعليمي واضحا من خلال التركيز على الصواب والخطأ ، في مفهوم الإفادة أو المغزى من الخطاب الذي يرمي إلى القصد والفهم في مراعاة أحوال السامعين .

وإذا كان علم البيان يتعلق بالأمور المعنوية من تشبيه ومجاز وغيرها ، فإن علم المعاني كما بدا لنا يتعلق بالأمور اللفظية من الذكر والحذف ونحوهما على اعتبار أن علم البديع يجمع بين الفنين السابقين ، والناظر إلى مباحث علم المعاني يجد اشتباها كبيرا بعلم النحو في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير وهو ما اضطرب عند البلاغيين الذين خرجوا من غاية علم المعاني في بيان وجوه اللفظ والترجيح بينها وبين غاية النحو التي تقف عند السلامة وانتظامها في اللسان العربي ، وهو ما وقع فيه السكاكي والخطيب القزويني[[3]](#footnote-4) ، و هذا ما دفع بالبعض إلى تعريف علم المعاني بأنه "علم يبحث فيه عن أحوال التراكيب العربية من حيث السكنات والمزايا بعد فهم المعاني الأصلية من علم النحو"[[4]](#footnote-5) ، ويبدوا من التعريف كأن علم المعاني تابع لعلم النحو أو فرع منه ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فقد يصح في النحو والتركيب لكنه يقبح من جهة المعنى في باب إفادة الكلام لمقتضى الحال ، ومن هنا استقل علم المعاني بمباحثه وأبوابه وانفرد بغايته وأهدافه التي فصل فيها القول عبد القاهر الجرجاني عندما تجوز مفهوم الصواب والخطأ في التركيب إلى ما يحسن به القول ويبلغ وتكون به المزية والبيان ، وبالتالي فإن علم المعاني يهتم بوجوب مطابقة الكلام لحالات ومقامات السامعين ، إذ قد يفضل الكلام بعضه من بعض ، لكنه يحسن أكثر إذا وافق مقتضى الحال أو يسوء إن جانبها ، ففي حالة الخبر لمن هو خالي الذهن منه يكون مجردا من أي تأكيد ، أما أكدنا الخبر لغير منكر له فقد أخللنا بأهم مبادئ أصول هذا العلم وهو مقتضى الحال.

**علم البيان**

غالبا ما يرتبط مفهوم البلاغة بالبيان ، كما لا يخف على الدارسين أن نشأة البلاغة العربية في بداياتها لم تكن تفرق بين البلاغة والبيان إذ لم تكن تعبأ بالمصطلح ولم تستوي العلوم إلى درجة يفرق فيها بين المصطلحات وحدودها ، وقد كان مصطلح البيان يضم مختلف فروع البلاغة العربية التي انفصلت في مرحلة التأسيس والتصنيف ، ولا عجب أن علم البيان قد انبثق في مرحلة النشأة من حقول معرفية مختلفة نتيجة تطور الحياة العقلية في المرحلة الأموية والعباسية على وجه الخصوص ، وذلك في حقل التفسير وفي بيئة المتكلمين والمعتزلة وعند أصحاب الإعجاز والبيان القرآني ، ولا شك أن أول من يرجع إليه الفضل في تأسيس هذا العلم وتشييد أركانه وتفصيل أفنانه هو عمر بن بحر الجاحظ صاحب (البيان والتبيين) ، إذ لا يذكر البيان إلا ويذكر كتاب الجاحظ الذي فصل فيه القول وميز بين التشبيه والاستعارة ومثل لكل نوع مع ملاحظاته القيمة وإشاراته الفريدة ، رغم أنه لم يعن بالمصطلحات والحدود النظرية ، واكتفى بإيراد الأمثلة والشواهد من الشعر والنثر عن التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وحقيقته ، التي غدت في عصر التنظير قواعد وأساليب مفصلة ، ولا يشبه كتاب الجاحظ من القدماء إلا كتاب الضياء الدين بن الأثير637 ه(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) .

رغم أنه كان هناك جهود أخرى بعد الجاحظ عند ابن قتيبة والرماني في النكت والباقلاني في إعجاز القرآن وفي الوساطة للآمدي والموازنة للواسطي ، ثم أن نهضت على يد عبد القاهر ثم الزمخشري في الكشاف قبل أن تستسلم للقاعدة والقانون عند السكاكي والخطيب القزويني .

قال السكاكي في تعريف البيان :" هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة ، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطأ في مطابقة الكلام في تمام المراد منه."[[5]](#footnote-6)

ويقصد به السكاكي أن إيراد المعنى على صور مختلفة لا يكون إلا في الدلالات العقلية ، وهو وجود علاقة بين المعنى والمعنى يقتضي الانتقال بينهما على أساس لزوم أحدهما للآخر بوجه من الوجوه ، ومن هنا يصبح علم البيان عند السكاكي[[6]](#footnote-7) اعتبار الملازمات بين المعاني ، وهو ما يقصده في التشبيه بين المشبه والمشبه به وفي الاستعارة في العلاقة بين طرفيه التشبيه والمجاز من جهة مخالفتها للحقيقة ، وفي الكناية بين إرادة المعنى القريب والبعيد ، وعلى هذا الأساس تصبح القرائن والأدوات وأضرب المعاني أهم ما يعول عليه في علم البيان.

**علم البديع**

وهو ثالث علوم البلاغة الذي اشتهر في العصر العباسي كظاهرة شعرية نهض بها الشعراء المولدون أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو نواس ، مما دفع بابن المعتز لتصنيف كتاب سماه (كتاب البديع 274ه) ، ثم كان أبو تمام الذي تمثل هذا التيار وبالغ فيه .

والمتطلع لكتاب البديع يجده يشتمل على خمسة أبواب : الاستعارة ، والجناس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والتكلف ، والملاحظ أن ابن المعتز اقتصر البديع على هذه الأبواب الخمسة التي تتفرع فيما بعد إلى ثلاثة عشر فنا بديعيا من التفات ، وحسن المدح ، تأكيد المدح ، وتجاهل العارف...وهي الفنون التي شكلت أبواب هذا العلم عند المتأخرين لذلك نجد الخطيب القزويني قد عرفه في التلخيص بقوله هو" [[7]](#footnote-8)علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة." ويعرفه ابن خلدون من خلال ذكر فنونه ومضمونه بقوله :"هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يفصل بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه ، لاشتراك اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك"[[8]](#footnote-9) .

وعلى هذا يصبح علم البديع معنيا بتتبع أوجه المعنى التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة ، بعد تحقق حسنه الذاتي بالبلاغة ، بمعنى إذا كانت المحسنات البديعية مقصودة لذاتها وليس في إيرادها إلا تحري مطابقة الألفاظ والحروف وموافقة الإيقاع من غير اعتبار للمعنى في ذلك فقد خرجت عن حد البلاغة إلى التكلف والصنعة التي انتشرت في عصر الضعف .

وتقسم المحسنات البديعية بحسب المعنى واللفظ ‘لى معنوية ولفظية.

فالمعنوية : التورية والاستخدام واللف والنشر والجمع والتفريق والتقسيم وحسن التعليل وتأكيد المدح أو الذم بما يشبه الآخر والادماج والتوجيه وتجاهل العارف والقول بالموجب والمبالغة المقبولة ومراعاة النظير والعكس والمشاكلة والمطابقة والأرصاد والتجريد والمذهب الكلامي ونفي الشيء بالإجابة وبراعة المطلب والتفريع و الاستتباع . واللفظية: منها الجناس ورد العجز على الصدر والسجع والقلب والتوشيح ولزوم ما لا يلزم والانسجام.

**المحاضرة رقم 04: البلاغة و الأسلوبية والنقد :**

الأسلوب لغة: عند ابن منظور: هو السطر من النخيل، و كلّ طريق ممتدّ فهو أسلوب فالأسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، الأسلوب الطريق والأسلوب الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه.

يعني الطريق أو الفن أو المذهب أو الوجه ، ويُعرّف الأسلوب في الاصطلاح الأدبي النقدي عادة بأنه: "طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه، والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها، لا سيما في اختيار المفردات، وصياغة العبارات، والتشابيه والإيقاع.

**الأسلوبية:** ويرجع الفضل الأول في ظهور الأسلوبية إلى العالم اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير (1913-1857)Ferdinand De Saussure الذي أظهر علم اللسانيات:"اللسان في نظرنا هو اللغة ناقص الكلام" ، حيث أوضح أن اللسان:"نتاج اجتماعي لملكة اللغة، فهو مجموعة من الأعراف الضرورية التي يستخدمها المجتمع لمزاولة هذه الملكة عند الأفراد" ، وأن اللسان:"ما هو إلا راسب من عمليات عديدة للكلام عبر الزمن، أما الكلام فانه تطبيق أو استعمال للوسائل والأدوات الصوتية، والتركيبية والمعجمية، التي يوفرها اللسان" .  
 لكن الفضل الأكبر ناله تلميذه شارل بالّي (1947-1865) Charles Bally وهو:"باحث لساني كان مختصا في السنسكريتية واليونانية، ولما استوعب المفاهيم التي جاء بها دي سوسير وتمثلها عكف على دراسة الأسلوب فأرسى قواعد الأسلوبية المعاصرة ابتداء من سنة 1902" .

وتتحدد مقولات الأسلوبية في ثلاثة عناصر: الاختيار-التركيب-الانزياح.  
**أ-الاختيار:**  
إن لغة النص الأدبي هي لغة مميزة، وهذا التميز يبين لنا أن الكاتب أو الشاعر قد اختار من المعجم اللغوي الضخم مجموعة من الكلمات حتى يستطيع تكوين رسالته وإحداث الأثر المرجو منها وبالتالي التواصل مع المتلقي، فلغة النص الإبداعي الأدبي هي لغة مختارة بعناية ودقة، ولهذا أجمع الباحثون على أن الكتابة أو النظم قوامها اختيار المعجم الخاص لإحداث الأثر الفني،وهذا ما كرره رجاء عيد بقوله:"كانت قناعة البنيويين أن المتكلم ينتقي خطابه على حسب اختياره من تلك الطاقة المختزنة في الذاكرة:اللغة، وفيها يكون انتقاءه لما يناسبه، وعليه فالأسلوب هو دراسة تلك الاختلافات، وتحليل أنماط التباينات" .  
**ب-التركيب:**  
إن تركيب النص الإبداعي خاصة حين ثورته على النمط النحوي المعتاد الذي يحترم قانون النحو، وتكوينه لتركيب جديد غير مألوف لدى المتلقي هو الذي يبعث الدهشة والتوتر، فـ:جون كوهين يرى بأنه:"لا يتحقق الشعر إلا بقدر تأمل اللغة وإعادة خلقها مع كل خطوة. وهذا يفترض تكسير الهياكل الثابتة للغة وقواعد النحو" ، لأن:"لكل أديب طريقة خاصة في استخدام الكلمة وتركيب الجملة من حيث النحو البلاغي...يجب أن ندرك أن التركيب=التشكيل اللغوي هو المادة الحقيقية المشكلة لفن الأدب، لهذا ينبغي بذل جهد كبير في التعرف على كيفية استخدام الأديب للغة"   
**ج-الانزياح:**  
هو الخروج عن المألوف المعتاد في الكلام العادي بين الأفراد في المجتمع، والاتجاه نحو صيغة كلامية تبعث الإيحاء وتحث على التأويل، وبالتالي خلق التوتر والاستغراق في حالة التأثر ومحاولة الشرح، أو كما يسميه بعض الباحثين بـ:"مواطن الخروج على المستوى العام الذي عليه الاستعمال العادي للغة" .

الأسلوبية:"مجال بحثي يندرج ضمن التقليد البلاغي،لم تفلح في تنظيم نفسها في علم مستقل" ، بينما وسم كل من تزفيتان تودوروف T. Todorov الأسلوبية أنها:"الوريث المباشر جدا للبلاغة" ، والأسلوبية كمنهج نقدي يصنفها جون دوبوا Jean Dubois على أنها:"فرع من فروع علم اللسان" ، وهذا ما يؤكده ميشال أريفي Michel arrivéبقوله:"الأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات" ، وهو إثبات لدور اللسانيات في بلورة مفهوم الأسلوبية، الأمر الذي دفع بـ: عبد السلام المسدي ب:"نادى بمد الجسور بين النقد وعلم اللسان عن طريق علم الأسلوب" ، ومعترفا في الوقت ذاته أنه:" من الحقائق التي غدت مقررة في عصرنا أن المعرفة الإنسانية مدينة للسانيات بفضل كثير، سواء في مناهج بحثها أو في تقدير حصيلتها العلمية" .

وبناء على ما سبق يمكن أن نستخلص اتجاهات الأسلوبية ومقولاتها ومستويات التحليل فيها، وبالتالي الاستعانة بذلك في تحليلنا للنصوص الأدبية، وهي كما يلي:  
**أ- أسلوبية التعبير:**أسلوبية التعبير أو الأسلوبية الوصفية تعنى بمعالجة تعبير اللغة بوصفه ترجمان أفكارنا. ويعد شارل بالّي رائدها بدون منازع ولا مدافع. وهو يحدد الأسلوبية بأنها: "دراسة أحداث التعبير اللغوي المنظم لمحتواه العاطفي، أي دراسة تعبير اللغة عن أحداث الحساسية، وفعل أحداث اللغة على الحساسية" . فهذه الأسلوبية – كما يؤكد بيير غيرو P.Guiraud -: "تعبيرية بحتة، ولا تعني إلا الإيصال المألوف والعفوي، وتستبعد كل اهتمام جمالي أو أدبي" .

**ب- أسلوبية الفرد:**أسلوبية الفرد أو الأسلوبية التكوينية ظهرت على يد النمساوي ليو سبيتزر Léo Spitzer، كرد فعل على أسلوبية بالي، وبتأثير مباشر من أستاذه الألماني كارل فوسلير (1872-1949). ويرى سبيتزر أن الفرد مستعمِلَ اللغة غير ملزم بالتقيد بقواعد اللغة المتعارف عليها، بل بإمكانه أن يتملص منها، ويبدع تركيبا لغويا جديدا يميزه عن غيره، ويكون بمثابة أسلوب خاص به وحده. وتكمن مهمة الناقد الأسلوبي في دراسة تلك الخواص اللغوية المتفردة الدالة على شخصية الكاتب. وكان الكونت بوفون(1707-1788) Buffon قد ألقى في المجمع العلمي الفرنسي عام 1753 محاضرة نفيسة بعنوان "مقالات في الأسلوب"، مما جاء فيها: "الأسلوب هو الرجل عينه"؛ بمعنى أنه صورة لصاحبه، تبرز مزاجه وطريقته في التفكير ورؤيته إلى العالم. وبعبارة المسدي، فهو "فلسفة الذات في الوجود" .   
وإلى جانب هاتين الأسلوبيتين يتحدث بعضهم عن أسلوبيات أخر، **كالأسلوبية البنيوية** ومن أعلامها ريفاتير الذي يؤمن بوجود بنية في النص، وبوجوب البحث فيها. ويضيف إلى ذلك أهمية "المتلقي" في تحديد الأسلوب والأسلوبية. فهو يزعم أن هذه الأخيرة " تدرس في الملفوظ اللساني تلك العناصر التي تستعمل لإلزام المرسل إليه أو متلقي الشفرة ومفسرها بطريقة تفكير مرسل هذه الشفرة. بمعنى أنها تدرس فعل التواصل لا كإنتاج صرف لمتسلسلة لفظية، بل كأثر شخصية المتحاور وكانتباه المرسل إليه. باختصار، فهي تدرس الإيراد اللساني عندما يتعلق الأمر بنقل شحنة قوية من المعلومة" إلا أن الفرنسي **جيرو** استطاع أن يؤسس لاتجاه أسلوبي بمؤازرة بعض رفاقه، وسمي "بالأسلوبية الإحصائية"، التي تتخذ من الأسلوب واقعة قابلة للقياس الكمي.  
**3- المستويات:**  
تتحدد مستويات التحليل الأسلوبي من خلال التعريف الذي وضعه دي سوسير للكلام:"الكلام تطبيق أو استعمال للوسائل والأدوات الصوتية، والتركيبية والمعجمية، التي يوفرها اللسان" فيما يلي:  
أ- الصوت (أو الإيقاع): يرى أحد الباحثين أن الإيقاع:"هو تنظيم لأصوات اللغة بحيث تتوالى في نمط زمني محدد، ولا شك أن هذا التنظيم يشمل في إطاره خصائص هذه الأصوات كافة...فإن الصوائت التي هي أطول الأصوات في اللغة العربية، هي أكثرها جهرا وأقواها إسماعا، وأما التنغيم فهو نتاج توالي نغمات الأصوات الناتجة عن درجاتها" .  
ب-التركيب: وهو عنصر مهم في بحث الخصائص الأسلوبية كدراسة طول الجملة وقصرها وعناصرها مثل المبتدأ والخبر، الفعل والفاعل، الصفة والموصوف وكذا ترتيبها، ودراسة الروابط مثل الواو، والفاء، وما، والتقديم والتأخير، والتذكير والتأنيث والتصريف، ومعرفة التحويلات أو الصياغات الجديدة التي تتولد، والتي تعد أساسا من الأسس التي تكوِّن الأسلوب .  
ج- الدلالة: يهتم علم الدلالة بـ:" الجانب المعجمي، وما تدل عليه الكلمات، مع تتبع لمستجدات المعنى الذي يلحق بتلك الدلالات، أو ما يدفع إلى أن يتبدل ما تشير إليه تلك الكلمات أو سواها. ومن الممكن متابعة "الدلالة" من خلال النظام اللغوي الذي يتميز بخصائصه النحوية والصرفية، والتي تشكل لهذا النظام بنيته الخاصة به...وهذه البنية تتشكل منها ما يعرف بالحقول الدلالية، والتي تضم مجموعات تشكل مفهوما مشتركا، أو دلالة تدخل في نطاق واحد" .

**البلاغة و النقد :**

إذا كانت البلاغة تنظر في كيفية إخراج الكلام على مقتضى الحال وبما يحسن به الكلام وتجود فيه العبارات فإن النقد الأبي يختبر هذه الإمكانيات في النص وينقلها إلى الحكم والتقويم ويردها إلى أصولها في صورة أعم وأشمل من حدود البلاغة التي هي رافدا من روافد النقد وأداة من أدواته لكن النقد يتجاوزها إلى آفاق أخرى ولهذا نجد دكتور إحسان عباس يعرف النقد بقوله(النقد في حقيقته تعبير عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامة أو إلى الشعر خاصة يبدأ بالتذوق أي القدرة على التميز، ويعبر منها إلى التفسير والتحليل والتعليل والتقييم – خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى وهي متدرجة على هذا النسق، كي يتخذ الموقف نهجا واضحا، مؤصلا على قواعد جزئية أو عامة مؤيدا بقوة الملكة بعد قوة التمييز..)(تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس) ويركز محمد غنيمي هلال على الجانب العلمي في النقد كونه علما من العلوم الإنسانية يخضع لما تخضع له هذه العلوم من تأطير وتأسيس ينهض بعلميتها، قوامه التحليل والتعليل والأسس الموضوعية (النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال) أما محمد مندور فيركز على الجانب الفني والتذوقي في النقد أكثر من الجانب العلمي، إذ النقد هو فن دراسة الأدب(في الأدب والنقد، محمد مندور)، والنقد ليس محصورا في العمل الأدبي فحسب ذلك أن رسالة النقد عامة وشاملة لا تنفك تنفصل عن أي نظر أو عمل كان فلسفيا، علميا، اقتصاديا، سياسيا، اجتماعيا، أخلاقيا...بل إن النقد هو أساس تقدم العلم على المستوى النظري وأي مراوحة أو جمود في النقد يتبعه جمود في الميدان الذي يشتغل عليه، والنقد لا يسلم حتى من نفسه، فهو يراجع نفسه رغم اشتغاله بمراجعة ما يحيط به من أفكار وعلوم ومعارف، ولذلك ظهر مصطلح **نقد النقد،** ولا يمكن لشيء أن يتمنع عن النقد، وإلا فقد حيويته وفني في ذاته ، أما البلاغة فإن هدفها نفعي تخاطبي أو تداولي يعنى بمستويات إخراج الكلام وتخير أحسنها أو أمثلها لموافقة المقام حتى يتم التواصل بين المتخاطبين دون عيوب أو عثرات.

1. - ينظر : عبد العزيز عتيق : في البلاغة العربية (علم المعاني البيان البديع )، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص24. [↑](#footnote-ref-2)
2. - حنفي ناصف وآخرون : شرح دروس البلاغة ، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، 2008 ، ص 19. [↑](#footnote-ref-3)
3. - عبد المتعال الصعيدي : البلاغة العالية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط02 ، 1991 ، ص40. [↑](#footnote-ref-4)
4. -نفسه39 [↑](#footnote-ref-5)
5. - محمد بن علي السكاكي : مفتاح العلوم ،تعليق وضبط : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، ط02 ، 1987 ، ص162 [↑](#footnote-ref-6)
6. - نفسه ص330. [↑](#footnote-ref-7)
7. - ينظر: عبد العزيز عتيق : في البلاغة العربية ، ص425. [↑](#footnote-ref-8)
8. - نفسه ، ص425. [↑](#footnote-ref-9)